قراءات ومراجعات

بين إسلامية المعرفة وإصلاح الفكر الإسلامي
قراءة في كتاب: إسلامية المعرفة تحرير الدكتور عبد الحميد أبو سليمان.* وكتاب الدكتور طه جابر العلواني إصلاح الفكر الإسلامي.**

د.دعاء فينو***

الكتاب الذي قد نسمه ابتداء "بالدستور الحضاري لمشروع أسلمة المعرفة"، هو خطة عمل منهجية". هذه الخطة كتبها الأستاذ الدكتور إسماعيل الفاروقي بعد مؤتمر إسلام آباد بالانجليزية ثم أعاد تحريرها بالعربية الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان. أضيف إليها أوراق عمل الندوات الكبرى التي عقدها المعهد بعد المؤتمر الأول، إلى جانب تقرير مختصر عن انجازات المعهد حتى صدور الكتاب الذي بين أيدينا للمراجعة والذي نشر في عام 1986م.

يؤكد هذا الكتاب منذ البداية حاجة الأمة المتراكمة تاريخيا إلى منهج إصلاحي فكري وذلك بسبب ما تعرضت له الأمة من هجمات استعمارية ثقافية على المستوى السياسي، ومن الغزو الفكري الثقافي الذي ابتدأ طوعا بتراشق (علم الكلام) وما أفرزه من تفرق. ثم يعرض إلى ما كان في مرحلة الدولة العثمانية التي نهضت الأمة في عهدها، "إلا أن رواسب الانحراف الفكري وأزمات التطبيق الجزئي المشوب بالشوائب لأحكام الإسلام سرعان ما عادت آثارها تنخر في كيان الأمة في نهايات الدولة

---

* أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. إسلامية المعرفة، سلسلة المنهجية الإسلامية (1)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1986م

** الدكتور طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، سلسلة إسلامية المعرفة (10)، 1995م.

*** دكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة بيرمنجهام – بريطانيا، سنة 2004م، عضو هيئة تدريس في كلية تدريب عمان-الأردن

العثمانية حتى جاء عصر النهضة الأوروبية، وهنا أخذ الغزو شكلا آخر وبعدا أعمق، فقد أصبح أكثر تنظيما وأوسع مساحة، فقرر مفكرو الغرب وسدنة سياسته ومصالحه أن يجعلوا منه غزواً شاملاً يتغلغل -دون حواجز- في العقلية الإسلامية فيغيرها...وإلى الدين الإسلامي فيعزله ويحصره في زوايا كهنوتية ضيقة لتحدث عملية المسخ الثقافي الشامل، والتبديل الفكري الكامل."[1]

لقد ارتبطت الهجمات الثقافية التي تعرضت لها الأمة بالاستشراق وعمليات التنصي، إضافة إلى حملات الاستعمار منذ القرن التاسع عشر، ونتج عن هذه الحملات تكريس التبعية الحضارية في عقول كثيرين من أبناء هذه الأمة، خاصة مع بلوغ النهضة الأوروبية أوجها في الصبغة التقنية والرفاهية وانتصارها السياسي في الحرب العالمية الأولى. ثم تبع ذلك "تخطيط في التبديل الثقافي للوصول بمعركتهم مع الإسلام إلى الصفحة الأخيرة... وليكون التبديل الثقافي الوسيلة الدائمة الباقية التي تضمن لهم إبعاد الأمة الإسلامية إبعادا تاما عن الإسلام. ليتوارث المسلمون جيلا بعد جيل ذلك الابتعاد."[2]

ولضمان هذا الابتعاد تم تبديل المناهج والبرامج وأنظمة التعليم وتسخير الإعلام للسيطرة على التوجيه الفكري والتربوي لأبناء الأمة. أما الإحباط السياسي الذي عانته الأمة فقد بلغ أشده مع قيام "دولة إسرائيل" بدعم من الغرب في درة بلاد المسلمين ليعيش المسلمون بعدها حالة إحباط مقيد لأي سعي نحو التغيير. الأمر الذي شتت جهود الإصلاح في منهجيتها البنائية في منظومتين متصادمتين أو متضادتين، الأولى: اعتمدت جانب إحياء الذاكرة في محاكاة الماضي التاريخي، والثاني اعتمد أسلوب الاستلاب الحضاري تحت مسمى الحداثة والنهضة وغيرها من الأسماء ذات المسمى الداعي إلى الاستنساخ الحضاري للآخر سبيلاً وحيداً في آليات النهوض، إلا "أن ما يصلح للغرب من فكر وعقائد لا يصلح لأمة قدر الله لها أن يبني كيانها ويرتبط

[1] انظر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة (المبادئ العامة - خطة العمل - الانجازات) 1986م، ص11.
[2] إسلامية المعرفة، ص12.

مصيرها وشأنها بكتاب الله وسنة رسول الله ε."[3]

إذن لا بد للأمة من طريق إصلاحي يعيدها إلى "منابع الفكر الأصيل في كتاب الله وسنة رسوله الكريم لتبنى بمقتضى ذلك حياة إسلامية قوية وكريمة، ولكن التحدي الذي لم يستطع تجاوزه وانجازه بعد، إنما هو معرفة معالم السبيل إلى تمثل كتاب الله وسنة رسوله ونقلهما من عالم القيم والتوجيه والمثال إلى عالم الواقع والحركة والتطبيق العملي. وخطة عمل للتحرك المطلوب للمسلم المعاصر والمجتمع المعاصر".[4]

ضمن هذه المرحلة التاريخية السياسية التي عرضها لنا الكتاب وما زالت أمتنا ترزأ تحتها، تم تأسيس "جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين" ضمن إطار منظمات اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية لخدمة القضية الفكرية الإسلامية ونشرها بين من حولهم من العلماء والمثقفين المسلمين". والتي تم تأسيسها بمشورة الكثير من رجال الدعوة والفكر والإصلاح المعاصرين للإفادة من خبراتهم.

ينوّه الكتاب بالمؤتمر الذي عقد عام 1977 في لوجانو بسويسرا، وشارك فيه ثلاثون عالماً من مختلف التخصصات من قيادات العمل الإسلامي. وقد تبين للمشاركين أن أزمة الأمة التي ليست سوى أزمة فكرية، لذلك اتخذت في المؤتمر توصية بـــ "تأسيس هيئة علمية متخصصة في قضية الفكر لمتابعة الدراسة العلمية المتعمقة... وفتح باب العمل الجاد الهادف المخلص المتواصل أمام المسلمين وعلمائهم".[5]

وتنفيذاً لهذه التوصية في معالجة الأزمة الفكرية للأمة تم إنشاء "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" الذي عقد أول مؤتمر عالمي يعالج قضية إسلامية المعرفة عام 1982م في إسلام آباد بالتعاون مع الجامعة الإسلامية، وقد قدمت فيه أبحاث ودراسات تؤكد

[3] إسلامية المعرفة، ص12.، وانظر أيضا تفصيل هذه الحلول في كتاب الأستاذ عبد الحميد أبو سليمان، أزمة الإرادة والوجدان المسلم، البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، في إصلاح الثقافة والتربية رؤية إسلامية معاصرة، دار الفكر ومؤسسة تنمية الطفولة، 2005م. وكتابه أزمة العقل المسلم، الدار العالمية للكتاب والمعهد العالمي للفكـــر الإسلامي، 1981 م.

[4] إسلامية المعرفة، ص13.

[5] إسلامية المعرفة، ص16.

على أن أزمة الأمة فكرية وأنه لا بد من تفعيل الجهود الإصلاحية لتخرج الأمة مما هي فيه من تمزق وتعطيل للطاقات تقف عقبة كؤوداً في ممارسة الأمة لشهودها ومهمتها الاستخلافية، وكانت خطة المعهد في بعدين:

الأول: معالجة الإشكالات المعرفية والمنهجية والوجدانية التي انعكست عن التبديل الثقافي. وهذا يقابل بإسلامية العلوم الاجتماعية والإنسانية لاستعادة الهوية الفكرية والثقافية؛ الثاني إعادة صلة الأمة بتراثها الإسلامي لأن "فيه الكثير من الجوانب النافعة والمفيدة التي لا بد من تنميتها وإحيائها... من خلال خطة عمل منهجية".

الكتاب الذي بين أيدينا هو تلك الخطة، وهو يقع في ستة فصول ، الفصل الأول يعرض إلى "القضية" ويبسط أبعاد أزمة الأمة الفكرية التي أصابت العقل والوجدان في أمتنا المسلمة. وهو أبرز المظاهر الرئيسية للعلة على صعيدها السياسي، الاقتصادي ثم الثقافي. وجذور الأزمة تتمحور حول اعتلال الفكر والمنهجية المنعكسة في حالة التعليم في العالم الإسلامي كما يقرر الكتاب ذلك.

إن "الافتقار إلى الرؤية الصحيحة" التي استندت إلى صورة ممسوخة من الأنموذج الغربي هي المسؤولة عن فشل المعاهد الإسلامية عبر قرنين من الزمان. فمستويات الخطاب بمنطلقاتها الغربية لا يمكن بحال أن تمتلك الفعالية المؤثرة ذاتها لانفصال السياق الاجتماعي والديني والسياسي بين الشرق والغرب الذي يفرض استحالة استعارة أنموذجه لخروج الفكر الإسلامي الإصلاحي من مأزقه.

حدد الفصل الثاني "المهمة" المبتغى تحقيقها في القرن الخامس عشر الهجري، وذلك "في سبيل حل أزمة الفكر والمعرفة الإسلامية والتي هي إيجاد حل لمشكلة التعليم"، و"إعادة تشكيل نظامه من جديد".[6] هذا التشكيل لا بد أن يستند إلى رؤية إسلامية الجذور وبجهود دائبة تشحذها الإرادة.

وتتلخص الخطوات الإصلاحية في خطاب مشروع إسلامية المعرفة في دمج نظام التعليم الديني بنظام التعليم العام، وبإنفاق ميزانية أكبر تتوجه إلى الطاقات الفعالة ولا

[6] إسلامية المعرفة، ص41.

تحتجز في الأبنية والشكليات. والذي بتظافر بغرس الرؤية الإسلامية في التربية الأولية للطفل من الأبوين اللذين -لا بد- أن يعتنى بصقلهما تربويا بما يفرض عليهما وعلى النشء المسلم والبالغين على العموم من سلسلة متواصلة من المقررات التعليمية في فصول الحضارة الإسلامية. إذ إن "دراسة الحضارة هي من أهم الطرق لتنمية شعور الانتماء لدى الفرد، فلا يكون المرء قادرا على إدراك ذاته دون أن يعرف أسلافه".[7] لأنه بهذا فقط يعرف الروح التي شكلت الطاقة الدافعة لديهم. "وبدون هذه المعرفة لا يمكن أن يكون المرء سيد نفسه...فان القوى الحضارية المتحاربة في هذا القرن يمكنها بسهولة الوصول إلى الإنسان وجرفه دون الحاجة إلى أي غزو أو احتلال عسكري... إلا إذا كانت حضارته إحدى الحضارات المتنافسة، ومن ثم الحضارة الغالبة، وبهذا يتمكن هو من تغيير الآخرين... وكذلك يجب أن يقدم الحضارة الإسلامية بوصفها الخيار العلمي الوحيد للتعامل مع المشاكل الأساسية للمسلمين وغير المسلمين في العالم المعاصر".[8]

إن "إسلامية المعرفة الحديثة" المهمة الشاقة الملحة التي تنتظر المفكرين والقادة المسلمين على السواء. المتمثلة في "إعادة صياغة تراث المعرفة الإنسانية برمته"في فروع المعرفة "ووفقا لوجهة النظر الإسلامية"[9]. وهذا سيشمل النتائج وتقويمها إلى جانب إعادة تصور الأهداف التي انطلقت أساسا لتحقيقها في فروع المعرفة لخدمة "قضية الإسلام".

هذه المهمة ستنجح لأن الآخر الغربي استفاد مما قدمته حضارة المسلمين في الفروع المختلفة ثم بنى عليها ما شكل صروحه المعرفية الحديثة، والتي -لا غرو- أن مسلمنا الفتي اليوم هو أولى بها إذا تذكر أن يعمق جذورها بعيدا في تراثه الذي تنتمي إليه وينتمي إليه هو أيضا.

أما في الفصل الثالث فقد عمد الكتاب إلى تحليل المنهجية التقليدية التي انطلقت من الجمود والتي تولد عنها ما يسمى بإغلاق "باب الاجتهاد". الحل التقليدي يمثل

[7] إسلامية المعرفة، ص46.

[8] المرجع السابق، ص47-50.

[9] المرجع السابق، ص54.

حالة من "القصور الذاتي" في الفكر الإسلامي. بهذا التحليل يحدد الكتاب ابتداء للمثقف المسلم قيمية هذا الحل في الإصلاح الإسلامي. ويعرض الكتاب حالة الفقه الإسلامي وفقهائه أنموذجا تحليليا يمثل واقع تعامل المسلمين المعاصرين مع التراث، وكذلك تعامل الأمة مع المحاولات الإصلاحية المتكررة ممثلة في محاولة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الإصلاحية ومن تابعهم إلى القرن الثاني عشر الهجري والتي هدفت إلى فتح باب الاجتهاد. هذه المحاولة الإصلاحية تكررت مرة أخرى مع محمد عبده والأفغاني إلا أنها لم تنجح. والكتاب الذي بين أيدينا يعزو هذا الإخفاق لسببين: أولهما إبقاء المؤهلات التقليدية التي يجب أن تتوفر في المجتهدين على حالها، وثانيهما، الإبقاء على التصور بأن المجتهد هو بالضرورة الفقيه الذي يتمكن من الصياغة القانونية الشرعية، والذي بدوره قصر الفقه على أعمال الإفتاء؛ والتي أبقت مؤهلات المجتهد على حالها. إلا أن مناهج فقهائنا التاريخيين المعتمدة على "حسن التذوق الشرعي وإدراك غايات ومقاصد الشريعة الإسلامية"[10] ليست هي ذات المناهج التي تخرج فقهاء المدرسة التقليدية الذين لا تتوفر في مناهجهم مقومات اجتهاد هم لا يؤمنون بوجوده أصلا.

إلى جانب ما مضى يعرض الكتاب الدستور الإصابات في ثقافة المسلم في توهمه للتصادم بين الوحي والعقل، وفصل الفكر عن العمل، ثم أخيرا ما سماه: "الازدواجية الثقافية الدينية"[11] التي تفترض تصادما على مستوى خيارات المسلم بين الديني والدنيوي، بمعنى ان اختيار احدهما سيفسد حضور الآخر في ذهن المسلم وفي معاشه.

في فصله الرابع يعرض الكتاب "المبادئ الأساسية للمنهجية الإسلامية" ويسوغ "إسلامية المعرفة" "بوصفها أساسا ضروريا للإصلاح الفكري والحضور الثقافي للأمة". فهي في رؤية القائمين على المشروع السبيل الأمثل للخروج من "الفصام النكد" بين "الفكر والتطبيق... المثال والواقع... القيادة الفكرية والأيدولوجية وبين القيادتين السياسية والاجتماعية، وفي نهاية المطاف فهي ضرورية لإزالة الثنائية الموجودة في النظام التعليمي".[12]

---

[10] المرجع السابق، ص62.

[11] المرجع السابق، ص70.

[12] المرجع السابق، ص75.

هذه المبادئ يفصل فيها الكتاب منطلقا من التوحيد ثم وحدة الخلق في نظامه الكوني. وهو يتمثله كذلك في إنشاء العلاقة التكاملية في إبداع الخليقة وبيان غاية تسخيرها للإنسان. ثم تأتي نظرية المعرفة التي ترتفع بالعقل المسلم بعيدا عن الوهم والخرافة لتفرض "وحدة الحقيقة المطلقة"[13] فلا تعارض بين حقائق الواقع وبين الوحي بل تكامل يحسم كل جدل. فرؤية إسلامية المعرفة تتمثل وحدة شاملة وكلية، تتحدث عن وحدة الحياة في تمثل خلافة الإنسان، ثم وحدة الإنسانية التي تلغي كافة أشكال التمييز إلا التقوى.

وأخيرا تبرز "خطة عمل المعهد" في خامس فصوله مع دعوة أولية تعلن فيها مبدأ عدم الاحتكار للعمل الإصلاحي الإسلامي. فكل جهد مخلص مطلوب، وكل عون لابد مشكور، وكل مؤسسة إسلامية معنية. وأهداف الخطة كما يعرضها الكتاب لا يمكن اختزالها -فيما أرى- وهي تتكون من ثمانية بنود:

1- "توعية الأمة على الأزمة الفكرية

2- تحديد معالم العلاقة بين قصور الفكر الإسلامي وقصور منهجيته من ناحية وبين غياب الأمة ومؤسساتها ونظمها وتخلفها علميا وثقافيا وحضاريا من ناحية ثانيا وتبين أسباب قصوره على العموم.

3- تفهم أسباب الأزمة الفكرية والسبل للخروج منها والتغلب على آثارها.

4- العمل على تجديد فكر الأمة، وتجديد طاقاته ومناهجه بربط منطلقاته بالمقاصد الإسلامية الأصيلة.

5- العمل على تأصيل شمولية المنهج الإسلامي في ميدان الدراسات الاجتماعية والإنسانية وتأصيل الدراسات العلمية الإسلامية.

6- البدء بأعمال تمكين الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية المعاصرة من استيعاب الأصول الإسلامية والتراث الإسلامي ومن العلوم والمعارف الحديثة وتيسيرهما على الدارسين المسلمين.

---

[13] المرجع السابق، ص91.

7- العمل على تقديم الأبحاث والدراسات والكتب المنهجية بقصد بلورة المفاهيم والمنطلقات الإسلامية وإرساء أسس العلوم الاجتماعية والإنسانية الإسلامية.

8- إعداد الكوادر العلمية اللازمة لريادة مجالات إسلامية المعرفة وذلك من خلال برامج المنح الدراسية والإشراف العلمي والبرامج الدراسية الإسلامية في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة كافة".[14]

وتعكس خطوات العمل التي يقترحها القائمون على المشروع دراسة متأنية ورؤية متكاملة لفريق متكامل من الباحثين وزخم فكري حاشد. ويتضمن التوعية بمفهوم "الإسلامية" مقابلا لمفهوم "التغريب"، ورفع راية "التحديث" "كمفهوم إسلامي وإنساني شامل وأن يصبح إطارا حضاريا وثقافيا مبدعا أصيلا يستوعب طاقات العصر وإمكاناته تجسيدا للغايات والقيم الإسلامية الإصلاحية الإعمارية السامية".[15] هذه التوعية تشكل مطلبا أساسيا وخطوة أولية في سلسلة الخطوات المقترحة. هذه الخطوة الأولية لن تتضح معالمها وربما لن تكون مستوعبة أو مقبولة بين المفكرين والمبدعين، لذلك نجد المعهد يقدم جهودا متتابعة ومتنوعة للإعلان عن نفسه وغاياته الإصلاحية، وتجنيد الباحثين والمفكرين لحشد الصف والمشاركة الفاعلة.

أما جهود البلورة "للفكر الإسلامي المعاصر ومناهجه تستدعي تمكنا من أصول الإسلام الكبرى وهي: الكتاب والسنة وعلوم الشريعة المتعلقة بهما وعلوم اللغة العربية، وتاريخ الصدر الأول للإسلام، ودراية بقضايا العصر الحاضر ومعارفه ووسائله وتحدياته، وذلك لتوفير القدرة على النظر الفاحص الناقد الذي يستطيع -في أداء معاصر- أن يستهدف قضايا العصر وتحدياته، وأن يبلور غايات الإسلام ومقاصده وفلسفته الأساسية في كل مجال هام من مجالات الحياة والمعارف المعاصرة، وأن يقدم تصورا شاملا متكاملا منطقيا لما ألم بالفكر الإسلامي ومناهجه من ثلمات أدت به إلى القصور والجمود، ويبين أسباب ذلك ويوضح المفاهيم ويبين المؤسسات والتنظيمات والوسائل والإصلاحات الأكاديمية والتربوية والاجتماعية المطلوبة، وذلك لتحقيق

[14] المرجع السابق، ص122.

[15] المرجع السابق، ص126.

الإصلاح في واقع الأمة بحيث يستعيد الفكر الإسلامي دوره في توجيه جهود الأمة في الإعمار والحضارة".[16]

وهذا يعني بالضرورة التمكن من التراث لا القطيعة عنه. وهذا التراث كما تفسره الرؤية التكاملية لأصحاب هذا المشروع الإصلاحي يستند إلى القرآن الكريم، والسنة المطهرة ثم آثار السلف الصالح من أصحاب النبي –عليه السلام- ثم فكر علماء الأمة ومفكريها وقادتها. هذا التمكن ييسر له المعهد السبيل من خلال توفير "الوسائل المساعدة لتسهيل تبويب التراث على نهج يتفق وتقسيمات المعرفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة وأهم قضاياها"، والثاني: "القيام بتبويب نماذج من النصوص التراثية وتقديمها إلى العلماء والهيئات العلمية تسهيلاً للتصور والعمل في انجاز التبويب الذي يتناول كميات هائلة من كتب التراث الجيد".[17]

"التمكن من المعرفة المعاصرة" خطوة هامة يسلكها المعهد كذلك في سبيل "الإسلامية". وهو يعمل على تحقيق نظرة ناقدة وشمولية للحضارة الغربية والتي لا يمكن تصورها بلا مسح شمولي علمي من خلال برنامج منضبط يرجى له أن يؤتي أكله ميسرا سبيل الدارسين.

هذا الجهد المسحي يتبعه "الكتب العلمية المنهجية" التي يقدمها المعهد مستكتبا المتمكنين من التراث والعلوم الحديثة على السواء لريادة إسلامية المعرفة، والتي شرطها الالتزام بأولويات البحث العلمي في التأليف في علم المنهجية، والعلوم السلوكية، وكذلك في علم التربية والسياسة، والاقتصاد والإدارة والإعلام والفنون. هذا الالتزام الأولي العام في علوم متعددة يرفده تكوين الكوادر العلمية على عدة وجوه ومستويات منها دراسات الأستاذية، والتفرغ العلمي، والمنح الدراسية وكل ما يتصل بهذه الجوانب العلمية العليا التي يبسط فيها القول الكتاب الذي بين أيدينا مفصلا أهميتها وآلياتها.

---

[16] المرجع السابق، ص127.

[17] المرجع السابق، ص130-131.

إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر الدكتور طه جابر العلواني.

يعد هذا الكتاب إعادة صياغة للمبادئ العامة وخطة العمل التي تبلورت عن المشروع الحضاري "إسلامية المعرفة" الذي يتبناه "المعهد العالمي للفكر الإسلامي. بكلمة أخرى كتاب العلواني يشكل مراجعة داخلية توجيهية للمبادئ العامة وخطة العمل والانجازات. فالكتاب في صورته الحالية تطوير لورقة العمل التي قدمها العلواني لمراجعة مشروع المعهد في ندوة المستشارين عام 1989م.

في مدخله يجيب الدكتور طه جابر العلواني عن "لماذا المناداة بإسلامية المعرفة" بأنها وإصلاح مناهج الفكر يشكلان القضية المحورية في إصلاح الخطاب الإسلامي التي اضطلع "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" بتحمل مسؤوليتها للنهوض بالأمة في مشروعها الحضاري.

والذي يشكل أساسا له إنتاج الخطاب الذي يجب أن ينظر في المخاطب المتلقي، خاليا من التعميم والاختزال، خطابا ذا معنى في ذهن المخاطب لأنه يعنيه ويعطيه دورا فاعلا في برنامج العمل الذي يقدمه.

هذا الدور الإصلاحي لمشروع "إسلامية المعرفة" لا يتجاوز البرامج الإصلاحية التاريخية التي بذلت جهودا لا ينبغي تجاهلها أو التشكيك في نوايا أصحابها أو جديتهم في معالجة الجسد الواهن للأمة. إلا أن هذه المحاولات الإصلاحية لم تؤت ثمارها المرجوة لخلل في منطلقات خطابها أو منهجيتها الإصلاحية. إسلامية المعرفة تقدم "محاولة إصلاحية منهجية، وتحاول أن تقدم للأمة منهاجا سليما لإعادة البناء، قائما على الدعائم الأولى ذاتها التي عليها قام بناء حضارة الإسلام في دورته الحضارية الأولى".[18]

الإصلاح للخطاب الإسلامي لا يتأتى إلا بإصلاح "منهجية القراءة وإعادة بناء

[18] السابق، ص23.

المدارك الإسلامية بقراءة الوحي والكون".[19] هذه القراءة التي يدعو لها العلواني "تلاوة تستنطق القرآن ذاته إجاباته الشافية وحلوله لتحديات كل عصر وجيل وأسئلته، باعتباره الكتاب المترل تبيانا لكل شيء إلى يوم القيامة".[20]

"بهذه الكيفية يتم للعقل المسلم حقيقة التجديد التي يرتبط فيها بما انقطع من صلة بكتاب الله الكريم. وبهذا تكون "إسلامية المعرفة" قاعدة من أهم قواعد تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة القطب، وإنتاج المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، إذ إن إسلامية المعرفة تمثل البعد الغائب عن مشاريع التجديد".[21]

المشروع الحضاري التغريبي فشل في رؤية العلواني التحليلية بسبب طبيعة العقلية الإسلامية وبنيتها، وكذلك لاعتماد الصحوة الإسلامية على تراث الإصلاحيين التجديدي. ولأنّ المشروع التغريبي الذي حمله المستشرقون لم يحسن توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية لتسويق فكره في الماضي. إلا أن واقع الأمة السياسي والاجتماعي ازداد بؤسا، وكذلك ازدادت الدعوات التغريبية تفننا في الالتفات إلى توظيف المصطلحات الإسلامية فباتت تمارس "التضليل الثقافي" على الأمة الإسلامية.

إن المشروع الإسلامي الذي يقدمه العلواني ضمن رؤيته لإسلامية المعرفة يضع نصب عينيه تجاوز إصابات المشروع الإسلامي في سياقاته التاريخية، بل ومحاولة معالجة أسبابها. لذا فالمشروع الحاضر "يأخذ بعين الاعتبار المنطلقات الإسلامية الأساسية، والنظرة الشمولية، وتحقيق التوازن والوسطية، وضبط النسب بين الأبعاد المختلفة".[22] هذه المسؤولية القيادية في رؤية العلواني تقدم ما "يتوقف عليه مصير نهضة أمتنا"[23] وإنقاذ الإنسان المعذب في الأرض. "وهذا لا يعني بحال من الأحوال الاستغناء أو العدول أو القفز فوق رصيد المشروعات الفكرية والإصلاحية السابقة، بل لا بد من

---

19 السابق، ص24.

20 المرجع السابق.

21 المرجع السابق، ص25.

22 المرجع السابق، ص28.

23 المرجع السابق، ص29.

تقويمها للإفادة من الجوانب الايجابية فيها والإفادة أيضا من التجارب الميدانية للمشروعات الإسلامية النهضوية المتنوعة".[24]

السؤال الذي يطرأ على الذهن مباشرة هو ما الذي سيقدمه المشروع الحضاري لأمة الإسلام ولعالم الإنسان من بعد؟

العلواني قدم إجابة واحدة بكلمة مفردة: "القرآن الكريم المجيد". فهو لا يجد أن القرآن قد غيب على مستوى التلاوة ولكنه غيب عن المسلم على مستوى التصور المعرفي والمنهجي. ذلك أن "الوسائط الكثيرة من تراثه في التفسير وعلوم القرآن وسواها تشكل مراجع ميسرة، لا تسمح له بالإحساس بالحاجة إلى المنهجية المعرفية في فهم القرآن أو التعامل معه".[25] وهو يجد أنّ الخطاب الفكري الإسلامي والاجتماعي السائد هو معاصر في شكله إلا أنه يعيش ضمن صياغة التراث الماضي، بمعنى هو يعيش الحاضر في ثوب الماضي، كأنما يعيش في قطيعة ما عن حاضره.

"مدرسة إسلامية المعرفة" التي ينتمي إليها العلواني تدرك هذا المأزق الذي يعيشه الخطاب الإسلامي السائد، وتلح هي على الحل يكمن في "إدراك عظمة القرآن المجيد على مستوى عصرها، ... وإعادة تقديمه إلى عالم اليوم وفي مستوى السقف المعرفي والحضاري لهذا العالم، وهي تجمع إلى ذلك قراءة الكون، وإعادة "الاتصال بين العلوم والمعرفة والقيم، وتوظيف العلوم والمعارف، التي بلغتها البشرية في منهجية معرفية إسلامية تؤدي إلى أسلمة الإحالات الفلسفية للنظريات العلمية"[26]. "لأن إسلامية المعرفة تدرك أن من غير الممكن المحافظة على أمة القرآن بمنطق ماضوي سكوني أمام محاولات استحواذ المركز الدولي الغربي المهيمن".[27]

يمضي العلواني في إقناع المخاطب المسلم إلى حاجة الساحة الإسلامية للمشروع الحضاري الذي يتبناه، وذلك لأن الأمة يسود خطابها الإسلامي والاجتماعي السائد

[24] المرجع السابق، ص30.
[25] المرجع السابق، ص30.
[26] المرجع السابق، ص35.
[27] المرجع السابق، ص34.

أزمة. هذه الأزمة يبسط العلواني أسبابها التاريخية والمنهجية في القسم الأول من كتابه بحديثه عن "دوافع الأزمة وعقلية التأزيم".

فخطاب المشروع الإسلامي من القرن الماضي إلى القرن الحالي ما زال متأثرا بالتعبئة السياسية التي فرضها صراع الأمة مع أعدائها، مما فرض اللاشمولية في الخطاب بما يتناسب مع حاجات الأمة على العموم.

وقد اجتهدت الحركات الإصلاحية ضمن الرؤية التحليلية النقدية التي يقدمها العلواني في توجيه الاهتمام إلى الجانب العقدي بما يتناسب مع تشخيصها للأزمة. الا أن هذا التشخيص الذي افترض خللا فكريا ناجما عن إشكال عقدي. هو الوهم الذي بني عليه الاعتقاد في أن تذكير الأمة بأمجادها سيكون كافيا لدفق فعاليتها في العروق المتيبسة من جديد. فيقول: "أما نحن فلا نرى أن أحدا يستطيع أن ينكر دراسة الواقع التاريخي الإسلامي، وتذكير الأمة بأمجادها، واستعادة أبعاد شخصيتها الحضارية وتطورها عبر العصور، هو ضرورة حضارية وثقافية للبناء المعرفي المأمول، لكن المشكلة في عدم الوفاء بمتطلبات الشحن والتفريغ الفكري والمفاهيمي، وعدم القدرة على التحليل، والعجز عن اكتشاف الشروط وتقدير الظروف الملائمة للفعل التاريخي، ومن ثم إدراك السنن التي تحكم السقوط والنهوض".[28]

هذا الخلل في التشخيص لم يكن منفكا عن خلط بين العقيدة والفكر، وخلط بين التصورات الفكرية الذي شكلها العقل المسلم حول الذات والآخر الغربي. وهذا الذي قد يفسر الانتقال إلى الغربي بحثا عن الخروج من هذا المأزق. وقد مهد لهذا طغيان الغرب وتقنياته المعرفية والاعتقاد بعالميتها تفتق عنه سيادة "خطاب المشروع التغريبي أو الدنيوي أو اللاديني أو العلماني معظم ديار المسلمين".[29] إلا أن الإشكال في أن الحل الغربي أيضا لا يمكن أن يستعار لإخراج الأمة من أزمتها، لأن الغرب له مصادره الثقافية التي لا تعتد بالغيب و لم تشكل حضارتها الإيمانيات التي كانت أساسا لبناء الحضارة الإسلامية.

---

[28] المرجع السابق، ص45.

[29] المرجع السابق، ص51.

"عقلية التأزيم" التي قدم لها العلواني قصة البقرة وعقلية بني إسرائيل تتمحور حول تعقيد الحل المقترح خلاصا من الأزمة بدلا من رفضه ابتداء.

التأزيم في التعامل مع السنة والإسراف في شكليات التوثيق في كل مرة وإغفال منهجية القرآن المعرفية في التعامل معها يؤدي في كل مرة يلوح فيها تعارض موهوم إلى الحديث عن إثبات حجية السنة، وقصور في الفهم الكلي وإدراك المقاصد.

"التأزيم من خلال توهم الدفاع عن العقيدة"، فنشأة علم الكلام التاريخية كما يرى العلواني كان سببها الدفاع عن الدين، ثم مال به العقل المسلم عن أصل نشأته ليتحول سبب فرقة بين المسلمين أنفسهم.

ثم تأتي عقلية "التأزيم من خلال توهم العناية بالفقه" التي "تحول أقوال الفقهاء إلى شريعة بجانب الشريعة، ويصبح الفقه البشري هو الشريعة".[30] هذا التأزيم التراكمي هو سبب ضعف الخطاب الإسلامي وقلة فاعليته في المجتمع الإسلامي.

في القسم الثاني الذي وسمه العلواني بـــ"حل الأزمة في إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة" والذي استهله بالحديث في فصله الثالث عن "خطاب إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة". يبدأ العلواني بالحديث عن "صمود خطاب إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة" والذي قوبل بعدم الاهتمام أو "محاربة أيدولوجيات محتكرة للفكر".[31] إلا أن هذه المحاربة التي ليست إلا تحقيقاً طبيعياً لسنّة التدافع تمخض عنها صمود "خطاب إصلاح الفكر وإسلامية المعرفة". المقاومة للخطاب الإصلاحي لم تثنه بل هي التي هدأت أصواتها أو كادت؛ لأن رفضها لم يكن لخلل في الحل. ولكن لعقلية التأزيم التاريخية المسيطرة على الخطاب الإسلامي السائد، أو لغبش الرؤية والتشكك والضعف الحضاري في قبول التجديد من داخل الفكر الإسلامي لا من خارجه لما يعانيه بعض أفراد الأمة من ما سماه العلواني بظاهرة "الاستلاب الثقافي".

لذا وجدنا أنفسنا نقف مع العلواني وهو يتحدث عن التساؤل الملح عن الخطاب

---

[30] المرجع السابق، ص66.

[31] المرجع السابق، ص73.

الإسلامي وضرورة تجديده لتخرج الأمة عن غيابها الحضاري. وهو يقرر ذلك بقوله: "وحتى يواصل خطاب الفكر الإسلامي المعاصر صموده المتنامي، ويواجه بصلابة طغيان الفكر الغربي الغازي والمستورد، نرى أن عليه أن يجعل من قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة قضيته الرئيسية والأساسية، قصده من ذلك تحقيق الأصالة الإسلامية المعاصرة، وتمكين الأمة من الشهود الحضاري، من خلال استلهام الأصالة وهضم الحداثة، وتقديم ذلك في مشروع معاصر موحد كامل متحرر، يقوم على فكر سليم دن أزمات، ومنهج واضح دون خطأ أو انحرافات، وثقافة بانية دون آفات، وحضارة شاهدة دون قصور أو معوقات".[32]

هذا المطلب يبدأ بمراجعة الذات، وتحديد الإصابة ، وتشخيص أسباب الأزمة وما يتصل بها من آفات، ثم "استلهام القيم في صناعة فكرية معاصرة قادرة على استرداد الشهود الحضاري". العناية بهذا كله كان كفيلا لمشروع أسلمة المعرفة بالبقاء –بإذن الله سبحانه ومشيئته- ثم بجهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمتعاونين معه من الجامعات والمدارس الإسلامية والمثقفين الذين تدبروا الفكرة وغَدَوْا من أنصارها والدعاة لها.

أما في الفصل الرابع فينقلنا العلواني إلى داخل مشروعه الحضاري، فيحدثنا عن "المعالم الكبرى لمشروع إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة". نقطة البدء ان التجديد الإصلاحي الذي يحمله ليس بدعا، بل هو جهد إسلامي أصيل يضرب جذوره في التاريخ الإسلامي، الذي شهد جهودا إصلاحية تجديدية على المستويين الفردي والجماعي.

وهذا ليس إساءة للفكر "وقد يكون الفكر سليما غاية السلامة عند ولادته، أو يكون تكوينه سليما في منطلقه وغايته، ولكن الآفات تعرض له عند سامعه أو متلقيه، أو في أي عنصر من عناصر الواقع الذي يولد فيه. فقابلية الخطأ العقلي لدى الإنسان مظهر من مظاهر بشريته وعبوديته، وأسباب هذا الخطأ متنوعة ومعروفة ومسلمة".[33] لذلك كان المنطق حارسا للذهن وكان المنهج لضمان سلامة مراحل التفكير إلا أن

[32] المرجع السابق، ص79.

[33] المرجع السابق، ص89.

المنطق والفكر كذلك لم يعصما من الأخطاء والانحرافات، وهذه المسلّمة لا نختلف فيها مع العلواني، كما أننا نجزم أنه لن يختلف معنا كذلك أن هذا الحال ليس حكرا على أحد وكذلك لا ينجو منه أحد، وبالتالي كل فكر وكل منهج وكل مشروع لا يخلو من مثالب وآفات قلت أو كثرت.

وإذا كان الحال كذلك فمن الضرورة أن يعطى لمشروع إسلامية المعرفة وزنه الحضاري طالما هو أعلن عن منطلقاته الإسلامية وغاياته الإصلاحية، وأخذ على نفسه أداء "أمانة إعداد وتقديم الأسس الفكرية والمنهجية اللازمة لحركة الأمة"[34] وأعلن كذلك عن انفتاحه على أي فكر وكل جهد يصب في إعادة فاعلية الأمة في أداء وظيفتها الاستخفافية.

في رسمه "المعالم الكبرى للمشروع" يحيلنا العلواني إلى كتاب "إسلامية المعرفة" والذي شكل البعد النظري للمشروع ومبادئه العامة وأسسه المعرفية، وحاجة الأمة التاريخية له في تاريخنا المعاصر. "وبقطع النظر عن حجم هذه الجهود، فان عرضها ودراستها وتقويمها أمور لا بد منها، لتبين سلامة الخطة ووفائها وتكاملها من عدم ذلك. وقد جرت ممارسة معظم الوسائل المقترحة، من ندوات وحلقات بحث ونقاش وإصدارات ومشروعات بحث فردية وأخرى جماعية، وهي بنفسها أيضا في حاجة إلى التقويم والدراسة ورصد النتائج".[35]

وعين النقد التي يسلطها العلواني على المشروع الذي يعرضه طالت أول ما طالت فروع مكاتب عمل المعهد التي أصاب بعضها في توجيه جهوده لتحقيق الأهداف المرجوة او قصّر كذلك. وكنا نتحفز لننظر إلى ما ستطاله عين النقد أيضا في مراجعة العلواني الذاتية والداخلية، إلا أن العلواني أخذ بأبصارنا وقفز بنا إلى أروقة كتاب "أسلمة المعرفة" من جديد ليذكرنا بنقطة البداية. فعاد بنا إلى المبادئ العامة، والهدف، ومحاور العمل الخمسة، من: فكر، ومنهج، وعلم ومعرفة، وثقافة وحضارة، ثم أخيرا

[34] المرجع السابق، ص95.

[35] المرجع السابق، ص96.

التراث الإسلامي والإنساني. "وفي كل واحدة من هذه المحاور نحتاج إلى إعداد دراسة أو مجموعة دراسات تشكل خطابا يصل إلى أفراد الأمة كافة، يمكننا من تحقيق إنجاز يسهل قياسه من خلال ثلاثة أمور: إثارة اهتمام مثقفي الأمة، وتربية وإعداد كوادر كفؤة قادرة على الانجاز فيه، ثم أخيرا تقديم مادة معرفية ثقافية تستطيع الأمة أن تتناولها من خلال الوسائل التعليمية والإعلامية المقروءة والسمعية والبصرية كافة.

ولعل أهم الوسائل المساعدة على تحقيق ما تقدم يتيسر بمسح الدراسات والبحوث والكتب المقررة والموجودة في هذه المحاور، وتصنيفها وتقويمها ونقدها ثم انتقاء أجودها وأفيدها واختياره.

كذلك بتقديم ملخصات مقروءة لهذه المختارات ونشر الدراسات المتميزة فيها من خلال عقد ندوات وفرق نقاش. ثم من خلال عقد ندوات دولية ونشر نتائج البحوث، وإلقاء محاضرات عن هذه الدراسات والتعريف بها واستدعاء النقاش فيها بكل الوسائل.

ثم تتبع حركة التفاعل الأمة معها وإجراء المراجعات والتقويم المستمر، وذلك من خلال رصد ردود الفعل والتخطيط لكل حالة بما يناسبها، والعمل على إدخالها إلى المناهج الدراسية والمقررات، وذلك بمواصلة النقد والنقاش للمواد المقدمة فيها من المنظور الإسلامي، لبناء الحاسة النقدية لدى المسلم، وفرز المواد السطحية ولو وصفت بالإسلامية".[36]

إلا أن العلواني يقرر –سلفاً- أنه وفريقه القائم على "إسلامية المعرفة"لا يستطيعون وحدهم تغطية هذا كله ولكن هم أصحاب "دور العقل المفكر المخطط في هذه القضية"[37] وهم لإرساء هذا الدور عليهم إحسان تقديم الفكرة وبلورتها وإقناع الآخرين في ساحة الأمة الثقافية (في مستوييها العام والخاص) بها، وهذا لا يُتصور إلا بمزيد جهد ومزيد انتشار.

---

[36] المرجع السابق، ص130.

[37] المرجع السابق،ص123.

في قسمه الثالث في "الخطاب والمخاطب" يبسط العلواني القول في "مواصفات الخطاب وأنواع المخاطب" ويقدم فيه عينة هامة من الجمهور الإنساني الواسع هي أفراد المخاطبين في الداخل الإسلامي. وهو بهذا يتحدث عن مخاطبة اللادينيين، والدينيين من أعضاء الحركات الإسلامية، وخريجي الجامعات والمدارس الدينية. ثم من هؤلاء من قد يكون من الرسميين أو الأكاديميين. ويكون منهم من غلب على منطقه التسطيح أو التوفيق والتلفيق، ومنهم العوام. فإذا لم يميز بين هذه الفئات فمن البدهي أن الخطاب لن يؤتي ثماره وسيضاف إلى الجهود الضائعة التي منيت بها أمتنا بفقدانها، بدلا أن تفيد منها.

إن النقطة الهامة التي ينبهنا إليها العلواني هي أن الخطاب الإسلامي الجديد يجب أن لا يفقد أيا من هؤلاء، كما أنه لا بد له أن لا يفقد سبل الوصول إليهم، لأنه يجب أن يعنيهم جميعا ليتسنى للأمة بجميع أفرادها الوصول إلى الحالة الإصلاحية. فلا يشكل عامتهم عقبة في طريق الفئة المثقفة، أو السياسي في طريق الأكاديمي، فتتنازع الرايات ويزيد غبش التصورات. لا بد من وضوح المشروع الحضاري لكل هذه الفئات لتتوحد القلوب وتتضافر الجهود؛ لأن هذا فقط هو الذي سيشكل الدفع الحضاري المفقود للأمة. فالعقبات والمعوقات التي تأتي أخيرا في كتاب العلواني تتصدرها "المعارك الجانبية" التي قد تنشأ بين هذه الفئات لخلل في الخطاب أو تقصير فيه.

لذا فالتنبيه للذات من أخطائها مفيد وهام، فلا ينبغي التوقف عن الانجاز دون النظر تقويما ومراجعة. كذلك ينبغي الانتباه من سيطرة الأحادية على مناهجنا أو التحزب والاستجابة لما يسميه العلواني "عملية الاستقطاب". وأخيرا يحذرنا العلواني من الخلط أو الاختلاف في المبادئ، أو الارتباك في الأولويات والأهواء الشخصية، أو فقدان الأسس والثوابت والمنهجية التي اعتمدها المشروع الحضاري بابتعاده عنها ولو مرحليا تحت أي ضغط كان.

في تقديمه للطبعة الأولى من كتاب "إصلاح الفكر الإسلامي" الذي بين أيدينا، يقف الأستاذ عمر عبيد حسنة مع الغياب الحضاري للأمة أو ما عبر عنه "بالانحسار الحضاري مرده إلى الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة قبل أي شيء آخر. "لأن النسق الفكري

للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف، قد توقف عند حدود العقول السابقة".[38]

لا بد من تفعيل العقل المسلم وإصلاح المناهج العقلية وتنقية الموارد الثقافية في ضوء الكتاب والسنة. هذا هو الثغر الثقافي الذي يضع كلا الكتابين المعهد العالمي منافحا عنه؛ إلا أن اختيار المرابطة على هذا الثغر لا يشكل بديلا عن حركات الإصلاح وإنما هو شرط لاستمرارها.

قد آن للمصلحين من علماء الأمة ومفكريها التوقف عن الانشغال بآثار الإصابة بدل الانشغال بجذورها وأسبابها. ولا بد كذلك من أبصار الأولويات، وتصويب المنطلقات، وبلورة الأهداف، ودراسة أحوال المتلقي وتحليل الواقع. ذلك كله يقف على مستوى واحد من الأهمية لإنتاج منظومة فكرية متزنة.

في هذا السياق يبرز كتابا إسلامية المعرفة و"إصلاح الفكر الإسلامي" صورة لمحاولة إصلاحية متأملة، وهي محاولة مفتوحة للنقد والتعديل، نأمل أن تتضافر جهود المخلصين من أبناء الأمة لعلها تسهم في إخراج الأمة من حالة الغياب.

[38] المرجع السابق، ص12.